اللاهوت السياقيّ وأصوله في الكتاب المقدّس

نقولا أبو مراد

في فقرتها الثالثة، تقول وثيقة «نختار الحياة» إنّ مقاربتها لأوضاع المسيحيّين في الشرق الأوسط تعتمد «على منهجيّة اللاهوت السياقيّ، الذي ينطلق من الواقع...». وقد أتى تفصيل هذه المقاربة في الفقرات ٧٤-٧٦ التي تدعو إلى تأوين «معطيات الكتاب المقدّس» عبر مراعاة اللاهوت السياقيّ الذي يأخذ في الاعتبار الأبعادَ «الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة» كمنطلق «للتفكير في ما يريده الله منّا، هنا والآن». وتُترجَم هذه المقاربة، في الوثيقة، عبر الدعوة إلى إطلاق ورشة للتجديد والاصلاح الليتورجيّ والطقوسيّ، والتشديد على الانفتاح على الآخر في ثقافةٍ للحوار والتقارب. ثمّ تتابع الوثيقة لتحضّ على إيلاء الشباب الاهتمام الذي يستحقّونه، وإصلاح المؤسّسات التربويّة الكنسيّة والمقاربات الخاصّة بالتربية والتعليم.

شاع استعمال مصطلح «اللاهوت السياقيّ» بدءًا من أواسط القرن العشرين، لا سيّما في المدَيَين الآسيويّ والأميركيّ الجنوبيّ، وذلك لتوصيف المقاربات اللاهوتيّة أو التفاسير الكتابيّة التي تمثّل منظورًا ثقافيًّا محدّدًا أو تنطلق منه، أو تلك التي تعالج قضايا اجتماعيّةً سياسيّةً في بيئة معيّنة. وممّا برز من هذه المقاربات السياقيّة، على سبيل المثال لا الحصر، لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيّة، واللاهوت الأفريقيّ، وكذلك لاهوت الأرض المنطلق من المعاناة الفلسطينيّة من جرّاء الفصل العنصريّ والسياسات الجائرة التي تمارسها دولة إسرائيل بحقّ الفلسطينيّين.

وقد أتت المقاربة المستندة إلى الأبعاد السياقيّة في صوغ لاهوتٍ ما، أكانَ عقائديًّا أم كتابيًّا أم ليتورجيًّا، كنوعٍ من ردّ فعل على القيمة المعياريّة التي أُعطِيَت للّاهوت الذي تمّ صوغه في أوروبّا باعتباره قد فرض نفسَه، لأسباب عديدة ليس أقلّها بروزًا الاستعمار الأوروبيّ وما رافقه من تبشير للشعوب المستعمَرة، وتزويدها بلاهوتٍ معلّب نُزِّل عليها تنزيلًا كما نُزِّلَت جوانبُ أخرى من حضارة «الرجل الأبيض» وثقافته ومبادئه وقيمه باعتبارها معياريّةً وعالميّةً وصحيحةً في كلّ زمانٍ ومكان.

غير أنّ مثلَ هذا اللاهوت المعياريّ، باعتبارِه مجموعةً من المقولات اللاهوتيّة الجامدة التي تدّعي اختزان الرسالة المسيحيّة بتمامِها، صافيةً ومجرّدةً، لا وجودَ له، في الأصل، إلّا في فكر الذين ينظرون إليه على هذا النحو. فكلّ لاهوت، سواء أكان كتابيًّا تفسيريًّا أم عقائديًّا أم ليتورجيًّا، إنّما هو وليدُ الزمنِ الذي وُضِع فيه ورضيعُ المساقات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة واللغويّة والفلسفيّة التي تشرّبها صائغوه أو تفاعلوا معها. وبهذا المعنى، فإنّ كلّ لاهوت سياقيٌّ، وكلّ صياغة لاهوتيّة لا تستقيم ما لم تكن، في أساسها، كلامًا إيمانيًّا بنّاءً يخاطِبُ الكنيسة «هنا والآن»، أي في خصوصيّة السياقَين الزمنيّ والمكانيّ اللذين تحيا فيهما. وأقصد بالكنيسة هنا، لا المفهومَ المجرّد، بل الكنيسة المحلّيّة في زمان ومكان محدّدين بأضيقِ سياقاتهما.

والحقيقةُ أنّ طابِع الجمود والصنميّة، إذا ما أُضفِيَ على الخطاب اللاهوتيّ للكنائس، فأقفلت، كما تقول الوثيقة، «باب التفسير والاجتهاد» (فقرة ٧٤)، لتضحي كلمةُ الإنجيل، في جانب من جوانب تناقلها، محنّطةً، ولا تلامس الواقع، إنّما هو علامةٌ ليس فقط على فشل المعنيّين بالتعليم الكنسيّ والقائمين عليه، بل على «خطيئة» كبرى من قبيل «إطفاء الروح» والإخلال بالاجتهاد في واجب تعلّم الكلمة الإلهيّة وتعليمها، وإهمال هذا الواجب.

ومع وضوحِ الكتاب المقدّس، في مواضع كثيرة، بشأن مخاطبة الناس بالكلمة من منطلق السياق الذي هم فيه، فقد طغى في الكنيسة عامّةً، وعلى مدى العصور، تجميدٌ للاهوت، سواءٌ في صياغات المجامع المسكونيّة، باعتبارها مقولاتٍ منزّلةً لا يجوز المساس بها أو بحرفيّتها، أو في المصنّفات العقائديّة التي وُضِعَت هنا وثمّة، بدءًا بيوحنّا الدمشقيّ، في «ينبوع المعرفة» الأرسطيّ التوجّه، ومرورًا بتوما الأكوينيّ في «المجموعة اللاهوتيّة» الأرسطيّة هي الأخرى، وصولًا إلى هانس كونغ، وغيرها من المصنّفات المماثلة في منظورها. إذا ما قرأنا الكتاب المقدّس، نُدرِك

سريعًا، ومنذ بداءته، أنّ الله فيه لا يُشبِه الإله الذي تتحدّث عنه هذه المصنّفات بشيء البتّة، وأنّ الكلامَ عليه لا يأتي في مقولات من قبيل مُثُل أفلاطون العليا، بل على العكس؛ فالله الخالقُ المطلَق والفاعلُ الأوحدُ في الكون أجمَع، كما يصوّره لنا الاصحاحُ الأوّل من سفر التكوين، يتحوّل، بدءًا من الاصحاحِ الثاني، إلى ربٍّ يتفاعل مع شخصيّات محدّدة، فيخاطبُ آدمَ وامرأته، ويعظُ قايين وينتقم لهابيل، ويتعامل مع نوحٍ وابراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف والأسباط، ويسير إلى جانبهم، وتُروى قصّته معهم في الأماكن التي أقاموا فيها، في ضيقها ورحابتها، وفي سلامها وعدائيّتها، وفي طاعتهم وتمرّدهم، وفي عقرهم وإثمارِهم، وفي كلّ جانب من جوانب المسيرة البشريّة على الأرض.

وإنّ هذه الجدليّة بين الخصوصيّة والشموليّة في الصورة الإلهيّة، في أسفار الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد، أي العلاقة بين الإله الخالق للكون من جهة والإله في مسيرته مع فردٍ أو جماعة، هي في أساس صوغه، وتشكّل حجر الزاوية في منظور الكتّاب. ففي القصد الإلهيّ بخلاص البشر جميعًا، وعودة الأرض بأممها وشعوبها وما عليها إلى حالة الحسن الأولى التي خلقها الله عليها، ينزل الربُّ إلى سياقاتٍ ويختار من الناس عائلةً وعشيرةً، تتخبّط في تعرّجات تاريخها ووجودها، ليجعل من هذه السياقيّة المحدودة مثالًا للناس جميعًا على أنّ الكلمة الإلهيّة الداعية إلى المحبّة، إنّما هي نور وحياة للأرض كلّها. وما النبوءات الكتابيّة إلّا تحقيق لهذه الجدليّة بين المكانيّة والشموليّة، وبين المعهود في سلوك الناس والمرجوّ منه.

وفي العهد الجديد استكمال للخطّ ذاته، حيث يصير يسوع، معلّم الاثني عشر، بأسمائهم، وبضعفاتهم، وشكوكهم، وخيانتهم، وجهلهم، وسذاجتهم، وكذلك أيضًا بتبعيّتهم، وأمانتهم، وإيمانهم، وفهمهم، ومحبّتهم، يصير يسوعُ معلّمَ الأمم أجمع، لتغدوَ السياقيّة في قصص يسوع هي الموحية بالشموليّة، لا العكس. ولذلك، كانت الكنيسة، على مدى العصور، رسوليّةً في جوهرها، كما أنّها، في أُسُسِها الكتابيّة نبويّةٌ، بمعنى أنّ إيمانَها قائم على ما علّمه الربّ يسوع لجماعة الاثني عشر، تنقله بقوّة الأنبياء الذين خاطبوا الناسَ، أوّلًا، في سياقاتهم التي عَرَفَت الظلم والاضطهاد والقمع وإقصاء الفقير والمعوَز.

ومن هذا المنطلق، لم يكن في الكنيسة، في الأساس، لاهوت جامد، ومقولات معلّبة، بل كان هناك تعليم ووعظ في وسط الجماعة في بعدها المحلّيّ. فممّا وَصَلَنا من كتابات القرون الأولى، ومن كتابات الآباء المفسّرين، أنّ العظةَ كانت محورًا في الاجتماع العباديّ للمؤمنين حولَ كلمة الربّ وللاشتراك في سرّ الشكر. ونموذجُ هذا الاجتماع كان ويبقى سفرُ أعمال الرسل، حيث الاجتماع لكسر الخبز لم يكن منفصلًا عن الوعظ بكلمة الربّ، ومحورها موت المسيح على الصليب ومعناه في حياة المؤمنين، وعن عيش هذه الكلمة في الشركة والالتفات إلى المساكين. هذا، تحديدًا، هو عمق اللاهوت، وعموده الفقريّ.

وممّا لاشكّ فيه عندي أنّ كلّ عمليّة تأوينيّة للخطاب اللاهوتيّ ومعطيات الكتاب المقدّس، لا بدّ من أن تستند إلى قراءة للكتاب من منطلق أنّه، في جوهره وبطبيعته، كلمةٌ إلى «أناسٍ» في سياق معيّن. وعندما أقول هذا، لا أقصد بالضرورة أنّ الكتاب المقدّس هو «المحدود» في الزمان والمكان، بل المحدود فيهما، بالأحرى، هو الانسانُ، وأنّ الكلمةَ الإلهيّة «تخرج» من إطلاقيّتها، إذا صحّ التعبير، ومن تعاليها، لتأتي إلى الناس، و«تنصب خيمتها في ما بينهم»، كما يقول الإنجيليّ يوحنّا (يو ١٤/١)، وتصير منهم وإليهم، في آنٍ، حتّى إذا ما خرجوا هم، بدورهم، من سياقات العنف والظلم والقمع واحتقار المحتاج وإقصاء المهمّشين، يتحوّلون إلى مقيمين على هذه الأرض حقيقيّين، ينشرون فيها السلام والحقّ والعدل وقيم الحرّيّة والمساواة والعيش الكريم واحترام كرامة الناس وعدم التمييز على أساس الدين واللون والمكانة الاجتماعيّة. أليست هذه هي التي تجعل من المؤمنين الحقيقيّين ملحًا يملّح الأرض كلّها، وخميرةً تخمّر العجين كلّه؟

هـذه الحركيّـة التـي تتميّـز بهـا «الكلمـة الإلهيّـة»، مـن جهـة «خروجهـا» مـن عليائهـا آتيـةً إلى البـشر، نقـرأ عنهـا، إلى جانـب الإصحـاح الأوّل مـن يوحنّـا، في إشـعياء وفي سـفر الأمثـال. في إشـعياء (١١/٥٥)، تشـبه كلمـة الله المطـرَ الـذي ينـزل مـن السـماء عـلى الأرض ليرويهـا ويجعلهـا تنبـت وتثمـر، فهـي تخـرج مـن فـم الله العـليّ وتـأتي إلى النـاس في يوميّاتهـم، ولا تعـود إلى مصدرهـا قبـل أن تتـمّ مـا أرسـلها الله لأجلـه، أي تحقيـق السـلام عـلى الأرض.

وفي سـفر الأمثـال (٨/١-٣٦)، نـرى كلمـة الله، في ثوبهـا الحكميّ، تتمـشّى بـين النـاس، تـأتي إليهـم مـن الشـواهق، وتسـير في طرقاتهـم، وتجـوب سـاحاتهم، وتدخـل أسـواقهم، وتقـرع عـلى أبـواب بيوتهـم، داعيـةً إيّاهـم إلى الفهـم والاسـتقامة والحـقّ العرفـة (والمعرفـة؟) ومخافـة الـربّ والحيـاد عـن الـشرّ والكبريـاء والتعظّـم. ولئـلاّ تبقـى كلمـة الله وحكمتـه مجـرّدة، تجسّـدت في يسـوع المسـيح، الـذي ترجـم هـذه الكلمـة قـولًا وعمـلًا، وكلّـل فعلَـه بموتِـه عـلى الصليـبِ إظهـارًا لمحبّـة الله للنـاس التـي مـا تـردّدت في أن يكـون بـذل الـذات حتّـى المـوت أوضـحَ تجلّياتهـا.

بهـذا المعنـى قلـت، في البـداءة، إنّ كلّ لاهـوتٍ سـياقيٌّ. فـإذا كان اللاهـوت، في أساسـه ومـبرّر وجـوده، تـردادًا للكلمـة الإلهيّـة، وتعليـمًا لهـا، ودعـوةً للعيـش بهـا، فـلا يمكنـه أن يقيـم في بـرج عاجـيّ، مؤطّـرٍ بصياغـات جامـدة، ومحـرَّمٍ فيـه الاجتهـاد والنقـد والتأويـن الفعـليّ، وذلـك إذا كانـت الكلمـةُ التـي هـي موضوعُـه الأسـاسيّ، قـد كـسرت الحواجـز ومزّقـت الحجـب وخرجـت إلى النـاس، وحلّـت بينهـم في أصـدق تعابـير وجودهـم وحياتهـم.

مـن هنـا، فـإنّ دعـوةَ الوثيقـة وأصحابهـا إلى مقاربـة تسـتند إلى مقتضيـات اللاهـوت السـياقيّ لتأويـن المعطيـات الكتابيّـة واللاهوتيّـة والليتورجيّـة، لإنسـان الـشرق الأوسـط، إنّمـا هـي دعـوة للقيـام بمـا يتوجّـب عـلى الكنيسـة أن تقـوم بـه مـن منطلـق دعوتهـا الأصليّـة، أي أن تنـثر بـين النـاس، في تعرّجـات تاريخهـم ووجودهـم، بـذور الكلمـة لعلّهـا تنبـت وتنمـو وتُثمـر. وإذا كنّـا نأخـذ عـلى الـدوَل المسـتعمِرَة، في خطاباتنـا، أنّهـا طوّعـت الكتـاب المقـدّس، لتـبرّر لذاتهـا، في كثـير مـن الأحيـان، قمـع المسـتعمَرين، فـما الـذي يختلـف فيـه هـذا عـن فعـل الكنيسـة إذا مـا طوّعـت اللاهـوت، فجمّدتـه وحنّطتـه وصنّمتـه، لتقمَـع الفكـر والعقـل والحرّيّـة، وتقـود النـاس قيادةَ الغنـم إلى مـا لا يدركونـه ولا يفهمونـه ولا ينتمـي إلى يوميّاتهـم ولا يخاطبهـم في حياتهـم، في فرحهـم وحزنهـم، ومعاناتهـم وضيقهـم ومشـكلاتهم والتحدّيـات التـي يواجهونهـا؟

يقـول قائـلٌ إنّ اللاهـوت لا يُكتَـب مـن عـلى الشـبابيك، بـل في الشـوارع والأزقّـة. واللاهـوت الحقيقـيّ، إذا شـاء أن يُترجِـم ذاتَـه تعليـمًا لكلمـة الله، في هـذا الـشرق، لا بـدّ لـه ولصانعيـه وصائغيـه مـن أن يلتفتـوا إلى النـاس، بـدءًا مـن ذواتهـم، عـسى الكلمـة الإلهيّـة تـأتي، بكلماتهـم، كالمطـر عـلى الأرض، فتنبـت أرض الـشرق عـدلًا وسـلامًا وحرّيّـة.